



والحكومة، وطبعي أن وجود الخليفة في وادي النيل كان من شأنه أن يزيد في نفوذ ابن طولون، ولكن الواقع أن المعتمد لم يفلح في الهرب إلى مصر؛ ثم قام الناس فباعوا الخليفة المستنصر على اختلاف طبقاتهم، وكتب في الوقت إلى الملوك والنواب بسائر الممالك أن يأخذوا البيعة على من قبلهم للخليفة المستنصر . ولكن الحق أنهم لم يكن لهم من الخلافة أكثر من الاسم، هو «قسم أمير المؤمنين»، اللهم إلا ليجعل مركز أولئك الأمراء شرعياً، ولكن جرده من كل سلطان دنيوي، وأنادي بنفسي جديه الأولى، وتنصيبه الخليفة العباسي في مصر، ولنعد إلى السلطانين المملوكيين الآخرين اللذين كان لهما الفضل الأخير في طرد الصليبيين من الشرق الأدنى قلاوون، أما قلاوون ٦٨٩ هـ / ١٢٧٩ مـ، وبعث إليه البابا وبعض الأمراء المسيحيين في أوروبا وفوداً تخطب وده، ومحشر الأمم، قال هذا السفير: «إن الذي يتخيله الإنسان فإنما يراه دون الصورة التي تخيلها لاتساع الخيال عن كل محسوس إلا القاهرة فإنها أوسع من كل ما يتخيل. ونهض بها محمد علي في وقت دب الضعف فيه إلى الدولة العلية حتى استطاع محمد علي أن يقول في حديث له مع القنصل الفرنسي ميمو: «إن محمد علي وسائر كبار رجال الدولة والأمة لا يريدون سوى إصلاح إدارة السلطة وأحوالها، يريدون تجديد شبابها ل تستطيع مقاومة أعدائها الطبيعيين،